عطية الصيرفى (٢)

«ولأن الفقراء لا يجدون سبيلا للشكوى سوى العرائض، وهى اختراع مصرى منذ الثورة العرابية، فقد قررت أن أصبح عرضحالجى الفقراء أكتب لهم شكاواهم مجانا وأمنحها صياغات ملائمة وأوجه أصحابها إلى التحرك دفاعا عن مصالحهم، فطارت شهرتى فى كل المنطقة وقالوا إن كلامى يحرك الحجر وكل صباح يتجمع الغلابة، منذ بداية الخمسينيات وحتى الآن لكى أكتب لهم عرائضهم».
عطية الصيرفى «فى حوارى معه»

وتطور العرضحالجى إلى صاحب ما اشتهر فى ميت غمر بما سماه «ديوان المظالم» وأمام بابه كان يحتشد كل يوم أصحاب الشكاوى وهو يكتب مستخدما أسلوبا ناريا يحرك الحجر، وكثيرا ما كان يحرك المسئولين فعلا، وتدريجيا يتحول العامل المشاغب إلى نقابى، يقول الشحات فى حواره معى «وصل صيتى إلى الأسطى عبدالحميد جودة رئيس نقابة عمال النقل المشترك بالغربية، فاتصل بى وتتلمذت على يديه فتعلمت أساليب التفاوض مع مكتب العمل ومع أصحاب الأعمال، ثم دفعنى إلى دراسة القوانين والتشريعات العمالية، وعندما شعر أننى استوعبت ما علمنى إياه رشحنى عضوا بمجلس إدارة النقابة ونجحت، ويصعد الشحات سريعا ليصبح رئيسا لنقابة عمال شركة اتحاد الأوتوبيس بزفتى وميت غمر فى ١٩٥٠ ويسهم فى تأسيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك، ويكون أصغر عضو فى مجلس إدارته، وتتفجر طاقات الشحات وتتضافر عوامل عديدة فى صناعة هذا الكادر النقابى: حفظه للقرآن وقدرته على الخطابة ودراسته لتشريعات العمل ووعيه الماركسى. وبدأ فى تأسيس عديد من النقابات نقابة عمال المعمار فى ميت غمر، ونقابة معاصر الزيت ونقابة عمال الحليج، فوصفه مدير

مكتب العمل بأنه مورد نقابات، ومنذ البداية أدرك عطية خطورة مرفق النقل فقام بتصعيد نضالاته من العرائض إلى التفاوض إلى التحكيم إلى الإضراب البطئ ثم وصل إلى رفع دعوى فرض حراسة على الشركة.

وتأتى ثورة يوليو، وعندما يستعر الصراع بين أطرافها يلجأ عبدالناصر خلال هبة مارس ١٩٥٤ إلى ذات السلاح فاستخدم عمال النقل بقيادة صاوى أحمد صاوى ودمر بهذا السلاح التوجه الديمقراطى ودعاته، لكن الجرح الدامى فى قلب عطية الصيرفى يبقى دوما إعدام العاملين خميس والبقرى، ويقدم لنا شهادة مثيرة للدهشة «بالمصادفة قابلت محمد نجيب فى أواخر أيامه فى مستشفى المعادى ولما سألته لماذا أعدمت خميس والبقرى؟ قال إن السبب هو جمال عبدالناصر فقد أكد لى أن كل عمال المحلة وشبرا الخيمة وكفر الدوار شيوعيون فإذا لم نعدمهما فإن الشيوعيين سيقضون على الثورة» ويمضى عطية قائلا فى أحد كتبه «كان هذا الإعدام اغتيالا طويل الأمد للطبقة العاملة، وكان بمثابة رسالة إلى العمال والفلاحين بأن المشانق جاهزة لكل من ينطق». ويتطور عطية بمعارفه ويستخدم فترة السجن فى الدراسة فإن منعت الكتب عاش أيامه فى حوارات صاخبة مع كبار المفكرين من السجناء، وفى السجن يبدأ فى إعداد أول كتاب له هو «دور العمال فى المجتمع الاشتراكى» ويدخل به فى إحدى المسابقات ويفوز بالجائزة وقدرها خمسون جنيها، لكنها جائزة معلقة على شرط هو أن يشطب بعض الانتقادات الحادة ويرفض، فتسحب الجائزة.

وتتواصل كتاباته لتحمل كتبه عناوين مشاغبة فمنها مثلا «نقاباتنا فى خدمة السلطان» و«الطريق إلى ثورة الريف» و«اشتراكية أفندينا» و«العمال يواجهون المشانق نيابة عن الوطنية المصرية».. القرآن الذى لم يزل يحفظه عن ظهر قلب تحالف فى وجدانه مع الماركسية فأثمر كتابات حادة كمشرط حاسم أو كطلقة رصاص. فاتنا أن نقول إن عطية خرج من السجن مفصولا، وطبعا لم يجد عملا فالجميع يعرفون شغبه وبقى متفرغا للعمل وسط الجماهير وكتابة عرائض المظلومين ويلتقط رزقه يوما بيوم من عمل هنا أو هناك، وفى ذات الوقت كان يمارس نضاله الحزبى لتصبح ميت غمر وما جاورها من قرى قلعة للنضال العمالى والفلاحى، وإذ يأتى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ يصدر الحزب تعليمات بالتطوع لمواجهة المحتلين، القيادة الحزبية هو والشيخ محمد عراقى ومحمود مراد جمعوا

مئات المتطوعين وسافروا إلى معسكر للتدريب فى إحدى قرى الشرقية الملاصقة لموقع الاحتلال. ولا ينسى عطية ثأر العمال مع صاوى أحمد صاوى الذى قاد مظاهرات تهتف تسقط الديمقراطية، تعقبه من لجنة نقابية إلى أخرى على نطاق القطر حتى نجح فى إسقاطه ليكون عبرة لعملاء النظام. وفى فترة السجن الطويلة (١٩٥٩ - ١٩٦٤) كان التعذيب الوحشى فى سجن أبوزعبل وكان الصمود البطولى وكان الدفاع الشجاع أمام المحكمة العسكرية العليا وكان السجن خمس سنوات أشغالا شاقة، تنتهى ليبقى معتقلا فقد رفض كغيره كتابة استنكار للشيوعية، وتتواصل زياراته المتكررة للسجن ١٩٧٧ - ١٩٧٩ - ١٩٨١ - ١٩٩٠، الولد الشحات يكبر فى السجن يصبح كهلا لكنه يبقى مشاغبا، وكان الشحات قد أتى إلى منبر اليسار منذ اليوم الأول ويخوض معنا كل معاركنا لكنه كان يصوغ كل عباراتنا بألفاظه المشاغبة، ويحكم عليه بالسجن عامين فى قضية قذف، ونساعده على الهرب إلى السودان حيث يبقى فى أحضان الحزب الشقيق حتى نال براءته فى الاستئناف، ومع الجماهير ناضل الشحات ورشح نفسه فى المجلس المحلى ملأ المجلس شغبا، وحاول أن ينتزع من المجلس إدانة لكامب ديفيد وإذ يوشك أن ينجح يفصل من المجلس، ويرشح نفسه لعضوية مجلس الشعب وينجح فعليا، لكن يد التزوير تسلب منه المقعد فتخرج جماهير ميت غمر الغاضبة لتقطع طريق ميت غمر - بنها وتصطدم مع البوليس فى معركة دامية انتهت بالقبض عليه وعلى سبعمائة من المحتجين.

ويبقى أن نقرر أن عطية الصيرفى هو أول من خاض وقاد معركة التعددية النقابية مؤكدا فساد الحركة النقابية الرسمية التى سماها «نقابات السلطان» ويظل الولد الشحات مناضلا مشاغبا فى صفوف حزبنا، ويكون دوما صاحب أعلى الأصوات فى كل موقع يترشح فيه، وأصبح فى المؤتمر السادس الأخير عضوا فى المكتب السياسى للحزب، ويبقى كما هو مؤكدا أكثر من مرة «الجماهير تمتلك قدرا من الغوغائية، فلنكن مثلها غوغائيين» بقدر ما ولعله كان على حق.

ويبقى عطية الصيرفى كما هو

وذات يوم أرسل لى رسالة حب بدأها ببيت شعر

سأعيش رغم الداء والأعياء

كالنسر فوق القمة الشماء

تحدثت معه تليفونيا قال: أنا ماشى فسألته على فين؟ قال خلاص كده كفاية، ثم أوصانى «كن كما كنت دائما صدرك يفرش على الفدان الأخضر ولا تغضب من مهاجميك»، وقلت له سمعا وطاعة، ورحل، وفى حفل تأبينه بالمنصورة وقفت لأودعه فبكيت ولم أكمل.